السيطرة الاقتصادية الهلالية بالمغرب الإسلامي

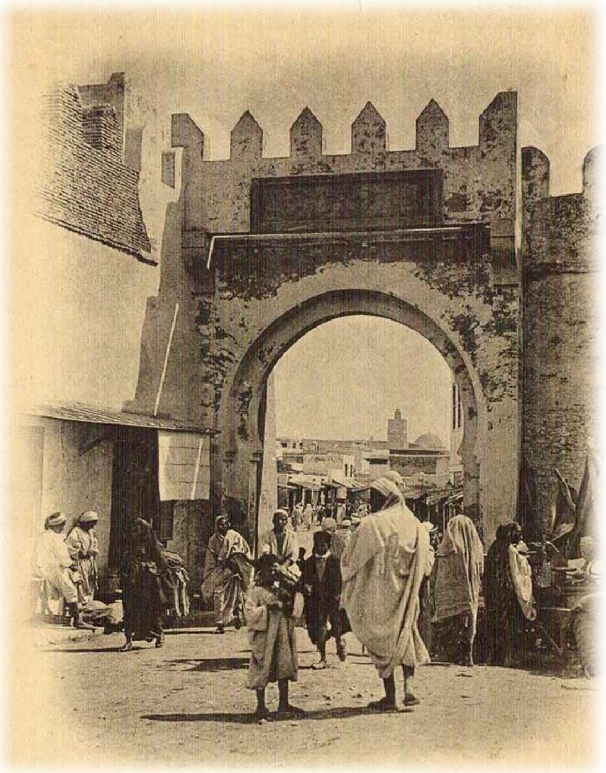

فوزية كرراز
أستاذة مساعدة بقسم العلوم الإنسانية
كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة معسكر - الجمهورية الجزائرية
fouziakheraz@ymail.com

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
فوزية كرراز ، السيطرة الاقتصادية الهلالية بالمغرب الإسلامي.- دورية كان التاريخية.- العدد الثاني عشر ؛ يونيو ٢٠١١. ص٥١ — ٥٦.
(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

لسنا بحاجة إلى التطرق للأسباب السياسية في الحديث عن التغريبة الهلالية بالمغرب الإسلامي ، باعتبار أن الأمر قد فصّل فيه وحيثياته واضحة ، لكننا بأمّس الحاجة لتوضيح الأسباب والأوضاع الاقتصادية والوقوف عندها مليا ، لأنها في نهاية المطاف ستحدد لنا مسار هؤلاء بالمنطقة ، وتفسر أسلوب العنف والخراب المنتهج من قبلهم ، وكذا اختيار مواضع للاستقرار دون أخرى ومن جهة أخرى لأن العوامل الاقتصادية كانت منذ الأزل وما زالت على رأس الأسباب في الصراع بين البشر وبين الحضارات.

هذا ولا يمكن التعرض للسيطرة الاقتصادية الهلالية بالمغرب الإسلامي بمعزل عن الوضع الاقتصادي في مصر وفي المغرب الإسلامي عشية التدفق الهلالي. وكذا بمعزل عن الصراع السياسي المستمر به والذي صنعته ثلاثة أقطاب رئيسية وهي السلطة الزيرية والحمادية والقبائل الزناتية. وإن كانت أبعاد الصراع اقتصادية بالدرجة الأولى تمثّلت في رغبة الزيريين في السيطرة على إيرادات التجارة الصحراوية ومراقبتها ، فيما حرص الزناتيون على الحفاظ على امتيازاتهم القديمة في هذه التجارة التي كان لهم فيها باع طويل منذ القرن ٢هـ/٨م ، والذي كان سابقا جوهر النزاع بين الزناتيين والفاطميين.[١]

ويجدر بنا التنويه إلى أن المداخلة اقتصرت على قرن من الزمن بدء بدخول الهلاليين المغرب ؛ ذلك أن هذه الفترة حساسة أكثر في الحياة الاقتصادية ، ففي خضم التحوّلات في المسالك التجارية استطاعت القبائل الهلالية إيجاد لنفسها أمكنة جغرافية ذات أبعاد اقتصادية ، وهي الدخيلة على المنطقة وليس ثمة إشكال بعد هذه الفترة ؛ بحيث حققت الذات واندمجت في السلطة والمجتمع المغربيين برضا جميع الأطراف. ومن تم لا إشكال في المكاسب الاقتصادية التي حققتها.

الوضع الاقتصادي بمصر في القرن الخامس هجري

عن الأوضاع الاقتصادية المتدهورة بمصر يتحدث المقريزي في كتاب له ألّفه سنة٨٠٨هـ/١٤٠٥م عنوانه "إغاثة الأمة بكشف الغمة" عن تاريخ عام للمجاعات التي عرفتها مصر منذ آدم عليه السلام إلى بداية القرن التاسع الهجري يحلل فيه أسباب تلك المجاعات ، ثمّ اقترح الحلول التي رآها مناسبة لتداركها.[٢] من بينها مجاعات نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس الهجري/ق ١٠-١١م. وكانت أشدّها الواقعة سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م ، ومن نتائجها الخطيرة تراجع في عدد السكان من جراء كثرة الموتي وإقفار الأرياف وتعطيل الأنشطة الاقتصادية ، وعرفت مجاعات ٤٤٤-٤٤٧-٤٥٧هـ/١٠٥٢-١٠٥٥-١٠٦٥م بالشدة الكبرى.[٣] ولم تكن القبائل الهلالية القاطنة بصعيد مصر بمعزل عن هذه الأزمات ؛ حيث كانت تعيش ظروف متدهورة بحسب ما ذكره المقريزي في كتابه "البيان والإعراب عمن نزل مصر من الأعراب".[٤] وعليه أسهمت هذه المجاعات في ترحيل القبائل الهلالية إلى بلاد المغرب التي لم تكن في سنة أو سنتين بل دامت عدّة أجيال.[٥] لأنه من غير المستبعد أن يكون الخليفة المستنصر شجع عملية انتقال بني هلال وبني سليم إلى افريقية لتخفيف الشدائد على سكان تلك المنطقة ،[٦] متذرعا بالقطيعة السياسية التي أعلنتها الدولة الزيرية اتجاه الخلافة.

وما يعزز هذا الاحتمال بل ويؤكده هذا النص:" فبعث المستنصر وزيره على هؤلاء الأحياء سنة إحدى وأربعين وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم بعير ودينار لكل وحد منهم وأباح لهم إجازة النيل وقال لهم أعطيتكم المغرب ملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون"[٧]. فعبارة لا تفتقرون دلالة واضحة على تدهور الوضع الاقتصادي لهذه القبائل وهي في الصعيد.ويثبت نص آخر هذه الوضعية المزرية مفاده: "...ثم إنهم لما وصلوا إلى بلاد إفريقية ، واستطابوها كتبوا إلى إخوانهم في اللحاق بهم ، فلم يتركهم الجرجرائي أو يؤدي كل عابر فروا ودينار فأخذ بذلك أكثر مما أعطى."[٨]

التغريبة الهلالية بالمغرب الإسلامي

كان رحيل القبائل الهلالية إلى المغرب الإسلامي ناجما عن سياسة الإقطاعات السلطانية التي صارت من العادات السياسية الجاري العمل بها في عهد الانحطاط للدول وذلك بتسليط الحكام بعض القبائل ذات العصبية الموالية للحكم على أراضي ليست لهم ليفتكوها من يد القبائل المعادية له ، أو يتسلطون عليها كجباة فارضين مقاييس خراجهم كما يشاءون[٩]. وهذا ما قام به الفاطميين بحيث اقتطعوا أرض المغرب للقبائل الهلالية. يستخلص هذا الإقطاع في النصين التاليين: "أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي"[١٠] "و ملكوهم كل ما يفتحونه."[١١] وما لبث الهلاليون حتى أوهموا أن بلاد المغرب كلها أرضهم أقطعت إياهم بأمر من الخليفة الفاطمي ،[١٢] وكانت سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م سنة الفصل في إقرار الوجود الهلالي رسميا ببلاد المغرب أول ما نزلوا برقة ،[١٣] وبقوا فيها مدة لم تحددها المصادر التاريخية.

ومع ذلك وردت إشارة في إحدى الدراسات على أن الوجود الهلالي بالمغرب سبق هذا التاريخ ؛ بحيث كانت القبائل الهلالية والسليمية تنتجع بالواحات الغربية في خط التماس بين بلاد المغرب ومصر منذ أواسط القرن ٤هـ/ ١٠م.كان: "بالواحات من بني هلال عدة غزيرة وأمة كثيرة ، وهي مصيفهم وقت الغلة وميرتهم منها."[١٤]

ويرجع تاريخ تواجد زغبة بجهة طرابلس إلى سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٠م ، جاء ذكرها في الحديث عن نزاع زناتة وزغبة التي تمكنت من قتل أحد زعماءها سعيد بن خزرون.[١٥] ومما لا شك فيه أنّ الجوع دفع بهؤلاء للهجرة نحو بلاد المغرب قبل العقد الخامس من القرن الخامس الهجري. وإذا ما سلّمنا بهذا النص التاريخي فأنّه لم يكن للسلطة الفاطمية الدور الكبير في تحريض هذه القبائل للرحيل إلى بلاد المغرب ، كما لم يكن الحدث السياسي سببا في هذه الهجرة.

الهلاليون ومسالك التجارة المغربية

يبدو أنّ تحرّكات بني هلال ارتبطت بالرغبة في السيطرة على المسالك الصحراوية الرابطة بين مصر وبلاد السودان الأوسط والغربي التي كانت تتحكم فيها القبائل الإباضية من الزناتة ومزاتة.[١٦] وإلى غاية نهاية القرن الرابع و بداية الخامس الهجريين ظلت الطرق التجارية الصحراوية بشرق المغرب الإسلامي محور الصراع. فكانت مدينة زويلة على امتداد العصر الوسيط أحد المراكز الأساسية لتجارة الرقيق[١٧] نظرا لوقوعها في نهاية طريق تشاد- كوار- فزان ، وفي مفترق الطرق المتجهة إلى مصر من جهة وإفريقية من جهة ثانية ، وهي الطريق التي عرفت استيراد الخصيان من كانم-بورنو- في أواسط افريقيا.[١٨]

ويؤكد من جهته اليعقوبي على أهميتها التجارية كمنطلق نحو الجنوب وبهذه الخاصية تشابهت مع وارجلان وسجلماسة ، فذكر أنّ أهلها يخرجون الرقيق السوداني من الميريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من أجناس السودان لقربهم منهم.[١٩] وما وراء زويلة مدينة كوّار تبعد عنها بخمسة عشر مرحلة ، أهلها مسلمون يتاجرون هم كذلك بعبيد السودان.[٢٠]

وإن كانت هذه الطرق التجارية الرابطة واحات أقصى شرق المغرب الإسلامي ببلاد السودان ومصر فقدت فعاليتها إلى حدّ ما نتيجة الصراع السابق الذكر فإنّها لم تفقدها كلية ، بالرغم من التدفق الهلالي على المنطقة بدليل أن هذه الأخيرة حاولت استغلال ما تبقى منها نشيطا قدر المستطاع والاستفادة منها. فقد شاركوا سكان مدينة أوجلة وهي من إقليم برقة تجارتهم برضاهم ، وإن كانت تجارة الكفاف. ويشير إلى ذلك الإدريسي: "مدينة أوجلة مدينة صغيرة متحضرة فيها قوم ساكنون كثيرو التجارة ، وذلك على قدر احتياجهم واحتياج العرب. وهي من الناحية البرية يطيف بها نخل وغلات لأهلها ومنها يدخل إلى كثير من أرض السودان نحو بلاد كوّار وبلاد كوكو وهي في رصيف طريق الوارد عليها والصادر كثير وأرض أوجلة و برقة أرض واحدة."[٢١]

ويستنتج من نص الإدريسي- وهو الذي تتبع توزيع القبائل الهلالية بالمغرب الإسلامي مند قدومهم إليه ، فكان أكثر المصادر الذي أوضح المناطق التي تعرّضت لخرابهم و فسادهم. و بيّن المناطق التي تهادنوا مع سكانها فدخلوا معهم في معاملات تجارية. ومن ثمّ كان الاعتماد عليه بشكل كبير أكثر من غيره- أن القبائل الهلالية استقرت بإقليم برقة وهي أولى محطاتها باعتبارها أوّل منبر ينزله القادم من بلاد مصر[٢٢] مدة لا يستهان بها وكورها عامرة بهم.[٢٣] كما لا يشير النص إلى أدنى تخريب ونهب بها من قبلهم ؛ لأنّه يؤكد على أن الصادر عنها والوارد إليها كثير في صيغة الحاضر لا الماضي. ثم يضيف: "وهي الآن يتجهز منها المراكب والمسافرون الواصلون إليها من الإسكندرية وأرض مصر بالصوف والعسل والزيت"[٢٤]. وهي شهادة كافية على استمرارية التجارة الداخلية والخارجية بها. ذلك لأن سكانها دون شك لم يعارضوا مبدئيا أو ظاهريا على الأقل وجود هؤلاء الدخلاء وإلا لما استمر النشاط الاقتصادي بهذه المدينة ، بدليل أنّ مدينة لبدة من نفس الإقليم تغلّبت العرب عليها وأجلت سكانها منها ، ونتيجة هذا الاصطدام تغيّر وجه المدينة من عمارة وزراعة.[٢٥] وغير بعيد عنها كانت سويقة ابن مثكود تحت طاعة العرب وبها أسواق رائجة ، وأهلها يحرثون الشعير على السقي والعرب يخزنون بها طعامهم[٢٦].

فالاعتماد على الإدريسي الذي لم يكن بعيدا زمنيا عن مستجدات القرن الخامس الهجري/ق ١١م وإن صحّ القول معاصرا لها تعتبر شهادته حية موثوق بها. فحديثه عن سويقة ابن مثكود يتضمن عدة معطيات تاريخية وهي رضوخ سكانها وهم من بربر هوارة للسيطرة الهلالية الأمر الذي جنبهم الدخول معهم في حروب مما انعكس إيجابا على الحياة الاقتصادية كالاستمرارية للحرث والزرع. وثمة إشارة مهمة أخرى والمتمثلة في نظام السقي الذي ظلّ مستمرا ومعتمدا في الزراعة دلالة على عدم تخريبه ، خاصة وأنّ موضوع الماء في الواحات يعتبر من الأعمال الشاقة نتيجة الجهد الكبير المتطلب في استخراجه ، فضلا عن بناء السواقي وتهيئة المقاسم والمصارف ومراقبة التوزيع لذا يحتاج إلى يد عاملة هامة[٢٧] وكل هذا لم يتأثر بالوجود الهلالي. وثمة إشارة صريحة في النص أكثرهم أهمية على الإطلاق والمتمثلة في تخزين

الطعام ؛ وكان التخزين عادة في المطامير الجماعية في هندسة مميزة تختلف من مكان لآخر ، فقد كانت أحيانا في شكل القصور الجنوبية أي المكونة من غرف متناضدة ومتراكبة حولها سور دائر ذو منفذ واحد ، ويبني الطمار في وسطه أوعند مدخله غرفة للمراقبة. ويعمد بعض أهل البادية إلى خزن الحبوب تحت الأرض بطريقة جماعية حتى يعسر أحيانا التفرقة بين مطمور وآخر ويجعلون عليه زرب مثل السور.[٢٨] وفي اعتقادنا الطريقة الثانية هي التي اعتمدت عند القبائل الهلالية. وكان للتخزين بعدا تاريخيا آخر تمثل في الاستقرار وبداية إيجاد الذات لهؤلاء في بلاد المغرب.

وعمومًا الرغبة في الخروج من إقليم برقة والسير قدوما نحو افريقية لم تراودهم على الإطلاق. فالتقدم وإن كان فلم يتجاوز طرابلس ، وهذا نظرا لأن مدينة أوجلة لوحدها تحوي على الكثير من العشب[٢٩] وهم بذلك وجدوا المرعى ، فضلا على أنّها طريق تجارى نشيط ومربح. بدليل أن الإدريسي قام بقياس المسافة ما بين برقة وأوجلة بسير القوافل وفي هذا الصدد قال: "من برقة إلى مدينة أوجلة في البرية عشر مراحل بسير القوافل".[٣٠]

هذا ولم تكن طرابلس أقل شأنا من الناحية التجارية عن إقليم برقة ؛ بحيث كانت بها من الصناعة والأمتعة ما يتجهز بها إلى كثير من الجهات فضلا على أنّ لها مزارع شاسعة سمحت لتنتج الكثير من المنتوجات الهامة على قيمة كبيرة في التغذية كالزيتون والتين والنخل[٣١]. إلاّ أنّ كل هذا خرب على يد الهلاليين وأقفروا بواديها.[٣٢] لكن في اعتقادنا ما هو إلا خراب جزئي ومؤقت أو بصيغة أخرى خراب ناتج عن حرب ، فسرعان ما تستعيد المنطقة عافيتها وحيويتها ونشاطها بدليل أنّ زغبة رضيت بها في قسمتها عندما اقتسم العرب بلاد افريقية سنة ٤٤٦هـ[٣٣].

إذن إلى غاية موقعة حيدران ٤٤٣هـ/١٠٥٢م التي هي إيذان بتدفق البدو العرب وسط البلاد وشمالها وبانتشار نمط العيش الرحلي[٣٤] بها ظلّت القبائل الهلالية ظاعنة في بلاد برقة وجهة طرابلس مستفيدة من خيراتها وتجارتها. أما عن النهب والفساد الذي ستعرفه العديد من مناطق افريقية وشرق المغرب الأوسط ما هو إلا نتيجة اصطدام هؤلاء بسكان تلك المنطقة. ولم تكن الرغبة في الفساد لأجل الفساد عند هؤلاء ، خاصةً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن هذه القبائل لم تكن كلها بدوية ، بل منهم فقراء المدن ومطردو الطبقات والشاردون من حكم الأمراء ، والتحم الجميع تحت عصبية واحدة وكونت قبيلة لم يشهد لها التاريخ ضخامة وفوضى.[٣٥] إذن وضعيتهم تلك لا تسمح لهم بتخريب ما وقع بين أيديهم من مزارع ومدن وقطع الطرق التجارية ، وهم الذين طالما لجئوا للأقطار يلتمسون الاسترزاق والاستقرار.

وبناءً على ما تقدم يبدوا واضحا أنه لم يكن للقبائل الهلالية اليد الطولى في قطع طريقين هامين من طرق القوافل الواصلة عبر الصحراء بين الغرب وبين السودان والنيجر وهي الطرق التي يمر أحدها بواحة أوجلة والثاني بواحة غدامس مثلما نوّهت إليه إحدى الدراسات.[٣٦] أي صحيح عرف الطريق الرابط بين تادمكة وغدامس وجبل نفوسة وطرابلس تراجع في المبادلات التجارية ،[٣٧] لكن كان هذا نتيجة للتفكك السياسي الحاصل بالمغرب الإسلامي بداية من القرن الخامس الهجري والمتزامن مع حلول الهلاليين بالمنطقة ، والمتمثل في نزوح القبائل الزناتية إلى المغرب الأقصى بعد استيلاء صنهاجة على مواطنهم بشرق المغرب الإسلامي ، وهو الأمر الذي أضعف الحركة التجارية هناك بالمقابل نشطت بالمغرب الأقصى حيث استطاعوا تأسيس إمارات بأهّم المدن التجارية هنالك[٣٨]. إضافة إلى الانقسام الذي شهدته فيما بعد السلطة الصنهاجية الشرقية وظهور إمارتين متنافستين والمتمثلتين في الدولة الزيرية والحمادية ودخولها في صراع مع بقايا القبائل الزناتية ، وظهور قوة جديدة في غرب المغرب الإسلامي ألا وهي الدولة المرابطية. أدّت هذه التطورات إلى تأسيس محور تجاري يربط بين غانة وقرطبة مرورا بأودغشت وسجلماسة ومراكش وفاس. كان ذلك على حساب المسلك الأفقي الذي أصابه التجزؤ الرابط بين حواضر المغرب:برقة وطرابلس والقيروان والمسيلة وتيهرت وتلمسان وفاس فقرطبة ،[٣٩] وبالتالي الوجود الهلالي لم يكن سوى حلقة من حلقات التي أسست للتطور التجاري السلبي.

وكانت كل من موقعة حيدران سنة ٤٤٣هـ/١٠٥٢م ، وبعدها موقعة سبيبة سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م-بغض النظر عن أسبابهما- من الفرص التي سمحت لهم بالتوغل في أراضي المغرب الإسلامي ، فكانت الأولى سببا في توغلهم بإفريقية ، وكانت الثانية فرصة في انتشارهم بشرق المغرب الأوسط. إذن ما هي نتائج المترتبة عن هذا التوغل ؟ ثم على أي أساس اختارت القبائل الهلالية مناطق للاستقرار دون أخرى ؟

تعتبر هذه المرحلة حاسمة في تاريخ الطرفين لما أحدثته من تحولات وتغيرات جدرية بالمنطقة من حيث إعادة صياغة العناصر البشرية المكونة للمجتمع المغربي ، والعمل على توزيعه جغرافيا من حين لآخر ، كما أسست لنمط اقتصادي جديد ساد أغلب مدن وحواضر المغرب نتيجة الاستقرار الهلالي ، وعلى الصعيد السياسي زادت في ضعف السلطتين.

وفي حقيقة الأمر ما كان دخولهم يفرز مثل هذه النتائج الخطيرة وعلى كافة الأصعدة لولا الأوضاع المتردية التي كانت عليها السلطة الزيرية بافريقية عشية الدخول الهلالي ، إذ كانت على وهن وتفكك ما يغنيهم عن بذل مجهود كبير في السيطرة على أراضيها نجملها في:

- النزاعات الداخلية بإفريقية بين السنة والشيعة.
- الصراع المتواصل بين السلطتين الزيرية والحمادية من جهة والقبائل الزناتية من جهة أخرى ، مما أضعف السلطة الزيرية في المقام الأول ، الأمر الذي جعل المعز يطلب محالفة قبيلة رياح وإقحامها في جنده[٤٠]
- خروج المقاطعات الطرفية عن السلطة المركزية مثل جهة طرابلس والحضنة والجريد.
- ومن الممكن أن هذه الأحداث كلها هي التي عبّر عنها النويري أثناء وصفه لحال بلاد المغرب الذي وجدته عليه القبائل الهلالية قائلا: " ...ودخلت العرب ، فوجدوا بلادا خالية طيبة كثيرة المرعا. كانت عمارتها زناتة فأبادهم المعز ...".[٤١]

والحصيلة كان اكتساحهم لبلاد المغرب من ثلاث جهات متوازية وهي:

١- الطريق الصحراوي: دخلوه من الواحات السابقة الذكر بدء ببرقة إلى غاية قفصة جنوب إفريقية ، وبالضبط بمدينة بيلقان التي عرفت فسادا على أيديهم ، ثم استولوا على منافعها وجميع أراضيها ، كما سيطروا على ثروتها المائية.[٤٢] ومع ذلك لم يؤثر استيلائهم سلبا على الطريق التجاري الهام الرابط بين قفصة ووارجلان رغم توسطهم

له ؛ بحيث حافظت وارجلان على دورها الريادي التجاري رغم الوجود الهلالي بالمنطقة. وظلت كذلك طيلة العصر الوسيط ، فكانت المزود الرئيسي لأهل إفريقية والمغرب الأوسط بحاجتهم من الرقيق ، ويشيد بهذا ابن سعيد قائلا:" هي بلاد نخل وعبيد ، ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقية والسفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثير ".[٤٣] ولا يمكننا أن نتصور مرور القوافل التجارية بهذا الطريق دون أداء خفارة للقبائل المسيطرة عليه.

ثم زاد توغلهم أفقيا من جنوب إفريقية متقدمين إلى جنوب الأوراس بإقليم الزاب ، ووصلوا لاحقا إلى بلاد مزاب وجبل راشد بالمغرب الأوسط.[٤٤] فتمكنت من الاستقرار في جزء كبير من إقليم الزاب ، فارضة سيطرتها بالقوة على سكانه ، من ذلك سيطرتهم على حصن باديس ، فملكت أرضه ، ومنعوا أهله من الخروج إلا بخفارة.[٤٥] خاصة وأن المدينة بها من المؤهلات الاقتصادية ما يشجع على البقاء ، فهي ذات أرباض واسعة وبسائط كثيرة ، ومزارع يزرع فيها الشعير مرتين في السنة بالاعتماد على السقي ، وفيها كثير من النخل وأصناف الفواكه.[٤٦] كما استقروا بحصن بشر من أعمال بسكرة ،[٤٧] وتمكنوا من البقاء في بوادي إقليم طبنة.[٤٨]

ويبدو واضحا أن إقليم الزاب بشكل عام لم يتغيروجهه بالوجود الهلالي ؛ ذلك أن المصادر الجغرافية أشادت بخيرات المنطقة. فصاحب الاستبصار تحدث عن كثرة بساتين النخل وتنوع الثمار ، وكذا الأرباض الواسعة في كل من طبنة وبسكرة ، ونوّه للأنهار التي تشقهما ، والمستغلة في سقي تلك البساتين.[٤٩] وأشار عموما إلى الثروة المائية التي يحويها إقليم الزاب.[٥٠] ولهذا دلالة واضحة هي أن العرب الهلالية إما حوّلوا جزء من الأراضي الزراعية إلى مراعي واستبقوا آخر ، وإما أنهم شاركوا سكان البوادي مراعيهم ونشاطهم الزراعي.

٢-كان الثاني امتداد لهم في جهات الهضاب ما بين الأطلسين التلي والصحراوي ، وبداية وجهتهم إلى الشمال سواء بالمناطق الداخلية أو الساحلية التي كانت على إثر اقتسامهم لبلاد إفريقية" فكان لزغبة طرابلس وما يليها ولمرداس بن رياح باجة وما يليها" ،[٥١] ويستنتج من هذه القسمة أن انتشارهم خضع لخطة مسبقة تحولت بموجبها البلاد إلى إقطاعات لهم.[٥٢] كان هذا بعد موقعة حيدران وخراب القيروان ، أما قبلها فقد استولوا على المجال الممتد مابين طرابلس و قابس ، فكان إقليم طرابلس لقبيلتي عوف ورياب ، وقابس لمرداس ورياح إلا أنهم أضروا بشكل كبير بالمنطقة وأجلوا عنها قبائلها.[٥٣] ولا يخفى علينا ما لمدينة قابس من أهمية تجارية مميزة ، لأنها حظيت ببعدين البحري والصحراوي ، باعتبارها بوابة لطريق المشرق ومسالك الصحراء ، وقد شهدت فترات التعمير إلى غاية القرن السادس الهجري/ق١٢م ؛ ففي سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م أكمل الأمير رافع بن مكي بن كامل من بني جامع الهلالين بناء فصر العروسين الذي شرع في بنائه الصنهاجيين ،[٥٤] مما يدل على أن الخراب في أغلبه لم يمس المدن بل شمل بواديها.

وبعد هزيمتهم للمعز واكتساحهم للقيروان ، أصبحوا جباة على ما تبقى من النشاطات الاقتصادية بها.[٥٥] فازدادت قبضتهم على افريقية فدخلوا مراجنة عن طريق الأربس واستولوا عليها ، وفرضوا ضريبة على سكانها ، كما قاسموا أهلها القمح والشعير ما يكفيهم وزيادة.[٥٦] ومنها استولوا على مجانة واتخذوا بها مخازن لتخزين غلاتهم.[٥٧]

هذا وكانت موقعة سبيبة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م سببا في إقرار الهلاليين في أراضي المغرب الأوسط ، وبعبارة أخرى في إقليم الدولة الحمادية ، ذلك لما خرج الأمير الناصر بن علناس لامتلاك تونس في حملة تحالف فيها مع الأثيج إلاّ أنّهم خانوه وتحالفوا مع أخوانهم رياح وزغبة وزناتة من البربر الذين طالما ناصبوا العداء لصنهاجة. ولم يتوان تميم بن المعز من جهته عن الخروج بجنده لردّ هذه الحملة ، وكان اللقاء بفحص سبيبة غربي القيروان فانهزم الناصر وولى راجعا إلى قسنطينة ورياح في أتباعه ومنها إلى القلعة ،[٥٨] وعلى إثرها حازت سهول قسنطينة فدخلوا مع أهلها في معاملات تجارية وشاركوهم ا يسرهم ، كما شاركوهم الحرث والادخار ،[٥٩] خاصة وأنّها سهول خصبة ، ولها مناخ قاري ملائم يساعد على تخزين الحبوب في المطامير لمدة طويلة تفوق السنة ولا تفسد.[٦٠] وبذلك فإنّها تساعد على الاستقرار ، بل تمادوا في السهول الممتدة من قسنطينة إلى ميلة إلى مرسى الخرز وامتلكوها حتى أصبحوا يزودون سكان المدن بالحبوب ، من ذلك تمويل أهل مرسى الخرز بالحبوب بسبب قلة زراعتها.[٦١] ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل واصلوا سيرهم في أعقاب الناصر إلى غاية القلعة. إلاّ أن هذا الأخير صالحهم بإقطاع بواديها لهم مقابل ترك المدينة بسلام ، بدليل أنها أصبحت بعد خراب القيروان" مقصد التجار وبها تحل الرجال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب"[٦٢] وهو ما يعرف بإقطاع التأليف والتسكين ، وهو وسيلة ناجعة لتحكم الأمير في هذه القبائل واحتوائها.[٦٣] وهي بداية رسمية ومقننة لاندماجها واستقرارها ، وحولت تدريجيا من مجموعات بدوية مترحلة غازية قاطعة للطرق إلى الاستقرار والاشتغال بالزراعة.

٣-الامتداد في الشريط الساحلي: بدأ بطرابلس فقابس وقد تقدم الحديث عنهما ، ثم تونس فاستولوا على فحوصها وهي مزارع واسعة للحنطة والشعير. ويؤكد الإدريسي على استمرار رخائها قائلا: "وهي الآن في حين تأليفنا هذا الكتاب معمورة موفورة الخيرات يلجأ إليها القريب والبعيد والعرب تجاور أرضها وتأتي بأنواع الحبوب..."[٦٤] ومنها إلى باجة فملكوا خراجها ، كما تملّكوا بادية مرسى الخرز ،[٦٥] كما ملكوا بونة صلحا.[٦٦]

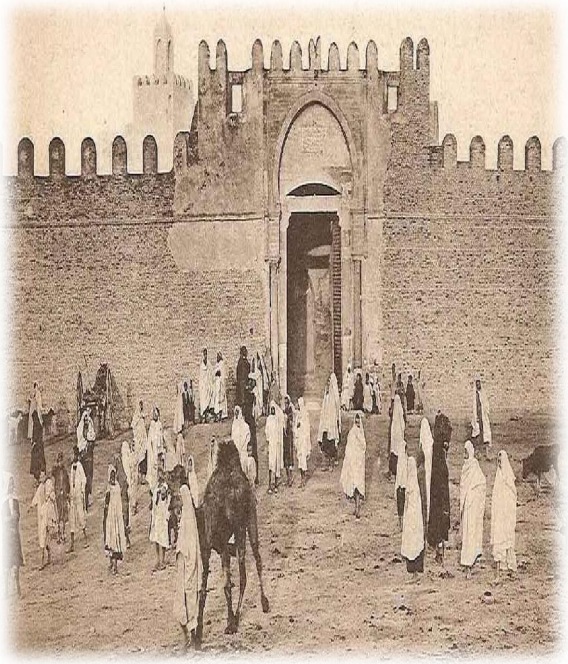

وللإشارة فإنّ المناطق الشمالية الشرقية للمغرب الأوسط أغلب سكانها من قبائل كتامة ، ومع ذلك لم تتحدث المصادر عن أية معارضة كتامية وهذا لسببين إما لمكاتبة الدولة الفاطمية لهؤلاء بعدم التعرض للعرب ، وإما التقرب منهم من تلقاء أنفسهم نكاية في صنهاجة.[٦٧] كما يجب التنويه إلى أنّ اكتساح القبائل الهلالية الواسع لبلاد المغرب جعلهم يقتسمون البلاد للمرة الثانية بعد القسمة الأولى التي كانت سنة ٤٤٦هـ سبق الإشارة إليها- " فكان لهلال من تونس إلى الغرب وهم: رياح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والأثيج والخلط وسفيان فيما نزلت سليم بجهة الشرق ".[٦٨] كما أنّ في هذه الحقبة التاريخية عرفت القبائل الهلالية تحالفات متعددة بحثًا عن المصلحة المادية ، فأفرزت كتلتين متنافستين تكونت الأولى من رياح وزغبة محالفة للسلطة الزيرية بالمهدية ، وضمّت الثانية قبيلة الأثيج وعدي والسلطة الحمادية.

خاتمة

وحصاد ما تقدّم يمكن تلخيص السلوك الهلالي بالمغرب الإسلامي ونتائجه خلال القرن الخامس كالتالي:

- تعرضت بعض مناطق افريقية وشرق المغرب الأوسط إلى تخريب من قبلهم وكان نتيجة حرب ، فأعيد انتعاش بعضها من جديد واستقروا بها وتجاوزوا أخرى.
- المناطق التي اختاروها للاستقرار في معظمها إن لم نقل كلّها ذات مواقع إستراتيجية اقتصاديا ؛ كوقوعها على أهم المسالك التجارية نلخص هذه المسالك في: مسالك تجارة القوافل الصحراوية مع بلاد السودان وبلاد مصر والمتمثلة في واحات برقة وأوجله و وارجلان.
- وطرق أخرى رابطة بين أهم مدن المغرب الإسلامي كالمسلك المؤدي بين المسيلة إلى القيروان وإلى قفصة عن طريق مقرة وطبنة وبسكرة وتهوذة. وما كان يصل تيجس بالمسيلة عن طريق قسنطينة وميلة وسطيف والمسيلة بفاس عن طريق أشير وتنس وتاهرت وتلمسان ، والطريق الرابط باغاية بطبنة عن طريق بلزمة ونقاوس ومجانة بعنابة عن طريق تيجس.[٦٩] ومع أنّ القبائل البدوية الهلالية لم تمارس النشاط التجاري ، لكنها ودون شك استفادت من هذه المسالك بفرض ضريبة المرور أو ما تعرف بضريبة العهد والأمان(خفارة).
- اختاروا المناطق الخصبة للاستقرار وإن حولوا أجزاء منها إلي مراعي ، فإنهم أبقوا أخرى على حالها ، بل مارسوا النشاط الفلاحي حتى حققوا اكتفاء ذاتيا ، وموّلوا المدن بالحبوب ، واعتمدوا طريقة تخزين الغلة وهي دليل على كثرة الإنتاج ، كما أنها دليل على نية الاستقرار النهائي عند هؤلاء. وحققوا هذه النتيجة إما بإجلاء أهل هذه الأراضي عنها بالقوة ، أو مشاركتهم ومقاسمتهم أملاكهم وبالتالي اندمجوا في المجتمع المغربي مما أعطى المنطقة أبعادا حضارية أخرى.
- كذلك من النتائج ، عرفت المنطقة بدء بموقعة حيدران إلى غاية التوسع الموحدي درجة من التأقطع والتشتت القبلي والتفكك السياسي والاجتماعي ، وأثر سلبا في علاقة المدينة ببداديتها إذ أحدث انفصال بينهما.
- لا الوجود الهلالي ولا أزمات القرن الخامس الهجري كانت لها أثر سلبي بشكل كبير على الحياة الاقتصادية بالمنطقة ، بدليل أن الكتب الجغرافية وعلى رأسهم الإدريسي الذي تحدث عن استمرارية الثروات الاقتصادية في كثير من المناطق على الرغم من الوجود الهلالي بها. فتواصلت الزراعة والصناعة والتجارة على أن التواصل لايعني بأي حال من الأحوال الاستمرارية الكاملة للهياكل القديمة أو تباتها.

وبناء عليه يجب أن نقف مليا عند نصوص الإخباريين ويتقدمهم ابن خلدون الذي ضم مقدمته بابا أسماه:" في أن العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب" قائلا فيه:" وافريقية والمغرب لما جاز إليهما بنو هلال وسليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه كلها خرابا بعد أن كان مابين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدر".[٧٠]

وفي حقيقة الأمر لا نرى في نص ابن خلدون إلا أحكاما مطلقة تحتاج إلى تدقيق وتمحيص ، إذ أن الأضرار التي ألحقها العرب بإفريقية والمغرب الأوسط كانت متفاوتة فيما بينها ، خاصة إذا علمنا أن أحكامه نابعة من اعتبارات ذاتية ، ذلك أن بني هلال كانوا سببا في نكبته ونكبة صاحبه أمير بجاية.[٧١] وفي نصوصه وجدت الأستغرافيا الاستعمارية[٧٢] الخيط الرفيع في تفسير مأساة المغرب الإسلامي. فرؤوا في الوجود العربي بالمغرب سواء عرب الفتح أو العرب الهلالية أكبر كارثة عرفتها المنطقة ، من بينهم صاحب النظرة العدائية للعرب غوتيي.[٧٣]

وحصاد ما تقدم فإن الاستقرار ومشاركة البربر في الحرث والتجارة وكذا فرض السيطرة على الطرق التجارية كلها عوامل أغنت القبائل الهلالية إلى حد ما عن النهب والسطو ، وعليه فإن العامل في انحراف أخلاقهم وسلوكهم هو العامل الطبيعي بمعناه الأوسع أو الشروط المادية لحياتهم وهم بذلك ليسوا أشرار بالطبع ،[٧٤] على عكس ما حاول غوتيي إثباته على أنهم أعداء بالفطرة[٧٥] ennemis nés

الهوامش:

(١) محمد حسن ، المدينة والبادية في العهد الحفصي ، نشر جامعة تونس الأولى- ١٩٩٩ -ج١ ، ص٣٥.

(٢) راضي دغفوس ،"العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم من مصر إلى إفريقيا ، "مجلة أوراق" المعهد الإسباني العربي للثقافة ، ع ١٩٨١، ٤، ص١٤٨.

(٣) المرجع السابق ، ص١٥٣.

(٤) نفسه ، ص ١٥٣.

(٥) عبد المجيد مزيان ، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها من الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٨١ ، ص ٣٨٠.

(٦) راضي دغفوس ، المرجع السابق ، ص١٥٣.

(٧) ابن خلدون ، العبر ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ج٢ ، ص٢٣٢٤.

(٨) التجاني ، رحلة التجاني ، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب- الدار العربية للكتاب ، ٢٠٠٥ ، ص ٥٥.

(٩) عبد المجيد مزيان ، المرجع السابق ، ص ١٥٦.

(١٠) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٣٢٤.

(١١)ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، ط٦ ، ١٤٠٦-١٩٨٦ ، ج٥ ، ص٥٥.
(١٢)عبد المجيد مزيان ، المرجع السابق ، ص ٣٨٠.
(١٣)ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة:ج س كولان ، ا.ل. بروفنسال-بيروت-دار الثقافة - ج١ ، ١٩٨٣ م ، ص ٢٨٨.
محمد حسن ، المرجع السابق ،ص ٢٩.
(١٤)التجاني ، المصدر السابق ، ص٢٢٧
(١٥)محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٣١.
(١٦)ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار بيروت للطباعة والنشر-١٤٠٨-١٩٨٨- ج٣ ، ص١٦٠/ البكري ، المسالك والممالك ، تحقيق جمال طلبة-بيروت-دار الكتب العلمية-ط١ ، ١٤٢٤-٢٠٠٣ ، ج٢ ،ص ١٨٣.
(١٧)عبد الإله بنمليح ، الاسترقاق في الغرب الإسلامي بين الحرب والتجارة ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، وجدة ، المغرب ،٢٠٠٣ ، ص ٨٣.
(١٨)اليعقوبي ، كتاب البلدان ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨-١٩٨٨ ، ص١٠٢.
(١٩)نفسه ، ن ص
(٢٠)الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٤١٤-١٩٩٤ ، مج ١ ، ص٣١٢
(٢١)نفسه ، ص ٣١٠
(٢٢)نفسه ، ن ص
(٢٣)نفسه ، ص٣١١
(٢٤)نفسه ، ص٣٠٨
(٢٥)نفسه ، ص٣٠٩
(٢٦)محمد حسن ، المرجع السابق ، ص٤٠١-٤٠٢
(٢٧)نفسه ، ص ٤٥٢
(٢٨)الإدريسي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٨
(٢٩)نفسه ، ن ص
(٣٠)نفسه ، ص ٢٩٧
(٣١)نفسه ، ن ص
(٣٢)ابن خلدون ، المصدر السابق ، مج٢ ، ص ٢٣٢٥
(٣٣)محمد حسن ،المدينة والبادية ، ص ٣٥
(٣٤)عبد المجيد مزيان ،النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون ، ص ٣٨٠.
(٣٥)أرشيبالد .ر.لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة: أحمد محمد عيسى-مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال ، نيويورك ، مؤسسة فرامكلين للطباعة والنشر ، القاهرة ، بلا ت ، ص ٣٨٥.
(٣٦)عبد الإله بنمليح ، المرجع السابق ، ص ٨٤.
(٣٧)عبد الحميد حاجيات وآخرون ، الجزائر في التاريخ من الفتح إلى بداية العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٤ ، ص٢٩١ .
(٣٨)محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٣٦.
(٣٩)ابن عذاري المراكشي ، البيان النغرب ، ج١ ، ص٢٨٨.
(٤٠)النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق: مصطفى أبو ضيف-الدار البيضاء- دار النشر المغربية ، ١٩٨٤ ، ص٣٤٣،/ ابن الأثير ،المصدر السابق ، ج٩ ، ص ٥٦٧.
(٤١)الإدريسي ، المصدر السابق ، مج١ ، ص ٢٧٨.
(٤٢)ابن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق ، إسماعيل العربي ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط٢ ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٦.
(٤٣)ابن خلدون ، المصدر السابق ، مج٢ ،ص ٢٣٢٨.
(٤٤)الإدريسي ، المصدر السابق ،مج١ ، ص٢٦٤.
(٤٥)مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق :سعد زغلول عبد الحميد ، الدار البيضاء ، دار النشر المغربية ،١٩٨٥ ، ص١٧٥
(٤٦)الإدريسي ، المصدر السابق ،مج١ ، ص٢٦٤
(٤٧)المصدر نفسه ، ص٢٦٤
(٤٨)الاستبصار ، ص ١٧٢-١٧٣
(٤٩)نفسه ، ص١٧١
(٥٠)ابن خلدون ، المصدر السابق ، مج٢ ، ص٢٣٢٥
(٥١)محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٣٠
(٥٢)الإدريسي ، المصدر السابق ، مج١ ، ص ٢٩٧-٢٩٨
(٥٣)التجاني ، المصدر السابق ، ص ١٠٩
(٥٤)الإدريسي ، المصدر السابق ، مج١ ، ص ٢٨٤
(٥٥)نفسه ، ص ٢٩٢
(٥٦)نفسه ، ص ٢٩٣
(٥٧)ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٢٣٢٨
(٥٨)الإدريسي ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٦٥
(٥٩)نفسه ، ن ص
(٦٠)نفسه ، ص ٢٦٥-٢٩١
(٦١)البكري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٢٦
(٦٢)محمد حسن ، المرجع السابق ، ص٣٢٩.
(٦٣)الإدريسي ، المصدر السابق ، مج١ ، ص٢٨٥
(٦٤)نفسه ، ص ٢٩٠
(٦٥)ابن خلدون ، المصدر السابق ، مج٢ ، ص٢٣٢٥
(٦٦)مبارك محمد الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، بلا ، ج٢ ، ص١٨٦.
(٦٧)ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج٢ ، ص٢٣٢٥
(٦٨)عبد الحميد حاجيات وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٨٠
(٦٩)ابن خلدون ، المصدر السابق ، مج١ ، ص١١٢
(٧٠)محمد عابد الجابري ، فكر ابن خلدون ، العصبية والدولة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،ط٥ ، ١٩٩٢. ص ١٥٠.
(71) Charle André Julien, Histoire de L'Afrique du nord, Casablanca, 1950, P 295
(72) Marçais George et les autres, Histoire de L' Algérie, PARIS, 1962. p121
(73) Gautier.E.F, Les siècles obscures du Maghreb , PARIS , 1964,p31
(٧٤)محمد عابد الجابري ، المرجع السابق ، ص١٤٩
(75) Gautier.E.F, Les siècles obscures du Maghreb , PARIS , 1964,p396

الأستاذة فوزية كرراز في سطور:
ماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي (٢٠٠٤). على أبواب مناقشة الدكتوراه في نفس الاختصاص. نشر كتاب: دور المرأة في الغرب الإسلامي ق٥-٧هـ/١١م دار الأديب ، وهران ، الجزائر ٢٠٠٦. مشاركات في مؤتمرات وطنية ودولية. نشر مقالات في دوريات وطنية ودولية.